فكاهات

رواية

الحياة السعيدة

هو الحبُّ فاسلم بالحشا ما الهوى سهلُ
فما اختاره مضنىً به ولهُ عقلُ
فان شئتَ ان « تحيا سعيداً » فمت بهِ
شهيداً والاّ فالغرام لهُ اهلُ

. . . . . .

قبلةٌ وغمغمة ودمعةٌ وأنّة وغمزٌ بالكفّ وتلويحٌ بالمنديل تلاها صوت دواليب عربة ووقع حوافر خيل . هكذا كانت وقفة الوداع المرّة التي لم يُسمَع فيها من الكلام غير هاتين الكلمتين « الى الملتقى »

— ١ —

كان في العربة فتاةٌ في زهرة الصبآء قد تخذت من زرقة السمآء لون عينيها ومن الثلج بياض البشرة ومن الظبي جمال العنق ومن الملائكة طهارة القلب والعفة والرقة ولم يفُق جمالَ ظاهرها الاّ جمال نفسها وحسن آدابها وجودة عقلها ووفرة تهذيبها وكان اسمها لينا . وكانت عائدةً في العربة الى

مدينتها من زيارة صديقةٍ لها في الضواحي مكثت عندها يومين قضتهما على افضل ما يتمنى المرء من المسرّة والصفآء

وكان بين جماعة المودّعين فتىً في إبّان الشباب يقال لهُ غونو فلما سارت العربة انفرد عن رفاقهِ الى عطفةٍ في الطريق وجلس على صخرةٍ كبيرة ولبث يراقب المركبة ويرافقها بالنظر حتى توارت عن بصرهِ بعد نحو نصف ساعةٍ من الزمان فتأوّه وتنهد وطفق يخاطب نفسهُ فقال

من كان يظن ان هذا القلب يستيقظ للحبّ بعد ان كنت اخالهُ قد مات ودُفن في ظلمة اليأس ودُفنت معهُ كل آمالهِ ومشتهياتهِ . فهل قُضي عليهِ ان يُبعَث من قبرهِ ليحيا ثانيةً للحب ثم يعود فيموت شرّ الميتات . كلاَّ ما هذا بحبّ ولكني عرفت الفتاة واعجبني لطفها ورقة عواطفها وشرف نفسها فظننت اني هممتُ بها والحال ان هذا الميل لم يخرج عن دائرة استحساني لذكآئها وآدابها . فعُد الى قبرك ايها القلب الشقي ولا تطمح الى الحب فقد قُضي عليك ان تحيا شقياً وتموت منسياً ...

وجلس الفتى على الصخرة نحو ساعتين وهو يناجي نفسهُ بمثل ما تقدّم من الكلام ثم شعر بحدّة سهام اشعة الشمس المتساقطة عليهِ فنهض من مجثمهِ وعاد الى منزلهِ وكان يمشي بقدم متثاقلة ورأس مطرق الى الارض وصدرٍ خافق وافكارٍ مشرّدة وقلبٍ يضطرب اضطراب الارشية في الطَوِيّ البعيدة . ولبث سحابة نهارهِ متجنباً خلانهُ ملتزماً العُزلة متخذاً لهُ من صخور الاكمة ومن ظلال الوادي ومن ازهار البرّية ندماناً حاولوا ان يصرفوا افكارهُ عن الموضوع الذي ملأَ خاطرهُ وشغل فؤادهُ فلم

يستطيعوا . ولما خيّم الليل عاد الى منزلهِ فدخل غرفتهُ واستلقى على فراشهِ وحاول ان يطرد بالنوم شواغل لبّهِ فلم تقوَ الطبيعة على تسرية همومهِ ولم تخلُ افكارهُ دقيقةً من حادثة الصباح حين ودَّع الفتاة التي سلبت لبّهُ وملكت قلبهُ فعلم اخيراً العلم اليقين انهُ مغرم بها ولا صبر لهُ عنها

اما لينا فكانت قد شعرت بجاذب شديد يدفعها الى حب غونو ولم تكن قد عرفت الحب قبلاً الا ما وقفت عليهِ منهُ في كتب الفكاهة واغاني المنشدين فما عرفت غير اسمهِ ولكنها شرعت منذ انقضت ساعة الوداع تذوق شيئاً فشيئاً من كاس الحب مما جعلها تفرق بين حلوهِ ومرّهِ

وبعد اسبوعين من وقوع هذه الحادثة وجد غونو نفسهُ ذاهباً لزيارة لينا وهو لا يشعر الى اين يذهب فاجتمع بها وثبت لهُ انها مغرمة بهِ فثبَّت جنانهُ واطلعها على سرّ فؤادهِ وعرض عليها قلبهُ ويدهُ فاجابتهُ وعاهدتهُ على الحب واقسما يمين الاخلاص والوفآء وافترقا وهما اسعد الناس

—٢—

قيل في الامثال دوام الحال من المحال ولم يرد في تاريخ البشر ان هنآءً لم يمازجهُ شقآء او لقآءً لم يعقبهُ فراق او أُلفةً لم يصدعها البعاد او سعادةً لم تمزقها اسهم النكبات . لم يمرّ على حبّ غونو ولينا شهران حتى حلَّت بهما مصيبة الفراق اذ قضت عليهِ دواعي الرزق بمهاجرة وطنهِ فودَّع المكان والسكان وكانت لهُ عند وداع لينا ساعةٌ رقّ لهُ فيها قلب الجماد فجدّدا عهودهما وأقسم كلٌّ منهما يمين الثبات على الحبّ ثم افترقا وهما يشرقان

بدموعهما ولا عزآء لهما الا امل اللقآء القريب

وفيما كان غونو مجدًّا ورآء الرزق وقد حرَّم على نفسهِ مسرّات الحياة وقصر همّهُ على جمع قدرٍ كافٍ من المال يكفل لهُ الاقتران بمالكة فؤادهِ والاكتفآء بحبها عن كل ما في العالم من مشتهيات ومطامع وردهُ منها الكتاب الآتي

يا حبيبي

قُضي عليَّ ولا مردّ لحكم القضآء ان تكون هذه آخر رسائلي اليك فلا تظن اني خنتك في ودادك او ان حبك زال من فؤادي فانت لا تزال الى هذه الساعة حبيبي اكثر مما كنت في اول ساعة عرفتك . فكن حليماً ولا تعجل بالحكم عليَّ قبل ان تقف على دقائق الحديث ولك بعد ذلك رأيك في ان تعذرني او تعذلني . انت تعلم ان حبي لك لم يكن غفلة سامٍ او حلم نائمٍ ولكني احببتك بكل ما في جوارحي وقلبي وحياتي من قوّة الحبّ وكنت احيا على امل الاقتران بك واصوّر لنفسي مستقبلاً سعيداً اقضيهِ بقربك الى ان تفرغ كأس الحياة فاموت بين ذراعيك مستوفيةً حظي من العمر . ولكن كل هذه الآمال المذهبة قد تلاشت كما تتلاشى ضبابة الفجر عند بزوغ شمس الصباح وقد فقدتُ كل رجآءٍ في الحصول على ما كنت اتمنى وثبت لي الآن انهُ لم يبقَ لنا من املٍ في انضمام جسدين بعهد الزواج اتحدت ارواحهما قبلاً بعهد الحب الصادق . فان الوصي عليَّ ابى ان يرضى عن قراننا وقال لي انهُ اقسم لابي عند ما كان يجود بنفسهِ ان يربّيني كاحدى بناته وان يزوّجني عند بلوغي سن الرشاد بابنهِ وان ابي

وافق على هذا الرأي وبارك خطبتي لابن الوصيّ وانا بعد طفلةٌ لا علم لي بشيءٍ . وانت تعلم يا حبيبي ان وصية الميت مقدسة فيشق عليَّ ان انقض وصية ابي ولو كان في انفاذها كسر فؤادي وتمزيق كبدي . ان القلب الواحد يا غونو لا يحتمل اكثر من حبّ واحد وانا لا اطيق البتة ان احب سواكَ فستبقى انت حبيبي الى ان أُوارى في لحدي . ولكنك وان ملكت قلبي فجسدي سيملكهُ سواكَ رغماً عني فاجتهد ان تنساني وامحُ ذكري عن صفحات قلبك واحسب اني قُطِعتُ من ارض الاحياء وأُبكِ اذا شئت على حظي بل على شبابي الذي يُدفَن في قبر اليأس قبل ان اتمتع بلذة الحياة او اعرف معنى هذا الوجود

ان قلبي ليتقطع لوعةً وجزعاً اذا تخيلت ما ستكون عليهِ عند تلاوتك كتابي هذا ولكني اثق برباطة جأشك وقوّة ارادتك واظن انك تقوى على احتمال هذا الجرح الاليم الذي يصيب فؤادكَ فتصبر لحكم القضآء وتعوّد قلبك نسياني وحبذا اليوم الذي اسمع فيهِ انك وجدت لك فتاةً أليق مني لحبك واحقّ مني بقلبك فتنعم بحبها وتنسى لينا التي كانت سبب شقآئك وبلاياك

اني اجثو على قدميك وألتمس منك الصفح عما اسأت بهِ اليك واستحلفك بحبنا الصادق ان لا تشك في صدق كلامي ثم اتوسل اليك ان تعيد اليَّ كل ما عندك من رسائلي وآثاري وانا معيدةٌ اليك الآن كتبك وفي قلبي من نار الوجد ما يحرق جسدي وفي عيوني من دموع

الحزن ما يقرّح اجفاني فسامح وارحم وانسَ محبتك

لينا

فما اتمّ غونو قرآءة الكتاب حتى اعترتهُ رعشةٌ عصبية فاظلمت الدنيا في عينيهِ وشعر ان دمهُ جمد في عروقهِ وان قلبهُ تحوّل الى حجر فلبث بضع دقائق شاخص النظر جاحظ العينين اصفر اللون كمن انتشرت على محياهُ ضبابة الموت ثم اضطرب وتململ وتدفّقت الدموع من عينيهِ واستسلم للوجد وبلغ منهُ اليأس فحاول ان ينتحر ثم خطر لهُ ان الانتحار دليل على ضعف القلب وخَوَر العزيمة وان الصبر على البلوى من افضل مزايا الرجولية فمسح دموعهُ وتجلد واعاد تلاوة الرسالة مرتين وثلاثاً وهو يقبّل سطورها . ثم اخذ ورقاً وقلماً وشرع في الكتابة الى مالكة فؤادهِ فوجد ان القلم عاجز عن الافصاح عما في ضميرهِ فقرر عزمهُ على السفر لزيارتها آملاً ان يتوفق بعد مقابلتها الى ازالة الحاجز الذي حال بينهما

وبعد ثلاثة اسابيع بينما كانت لينا جالسةً في غرفتها تتأمل فيما صارت اليهِ حالها اذا بغونو داخلٌ اليها فلما وقع نظرها عليه نهضت لاستقبالهِ ومدّت ذراعها اليهِ ثم تقهقرت راجعةً وقالت لا . لا يجب ان نلتقي بعد فان هذا اللقآء يزيد آلامنا ويضعف عزائمنا فلا نقوى على احتمال مصابنا . فارجع يا غونو من حيث اتيت واعلم اني اودعت رسالتي اليك كل ما تجب معرفتهُ فلا حاجة الى اعادة البحث في هذا المعنى واشفق على قلبي وانسَ انك عرفتني فاذا فعلتَ فانك تمنحني قوّةً على تحمّل مصيبتي

قال اتذكرين يمينك المغلظة لي انكِ لا تحبين سواي ولا تقترنين

بآخر فهل تخلفين وعدكِ من اجل تأييد وصيةٍ مشكوكٍ في صحتها وهل يحلّ في شرع الهوى ان نقتل الحبّ الذي غذوناهُ دماً قلوبنا ونضحّي قلبين وفيّين في سبيل تأييد دعوى وصيٍّ يستشهد الميت على صحتها . فأزيلي هذا الوهم من خاطركِ يا لينا وتعالي اضمّكِ الى صدري الملتهب بنار حبك وادعوكِ زوجتي الامينة او قولي انك زهدتِ في حبي وملتِ الى سواي

قالت لا تسلني مستحيلاً ولا تطلب مني الرجوع عن عزمي أفلستَ ترى ان كلامك ينفذ كالسهام الى قلبي ويمزّقهُ تمزيقاً . فاذهب لئلا يجرّ حبي اليك نصيباً من الشقاء الذي اكابدهُ ودعني اقاسي العذاب وحدي وعش انت سعيداً اذا استطعت بعيداً عمن كانت سبب بلائك ولكن عدني انك تعيد اليَّ جميع رسائلي التي كتبتها اليك قبلاً وانك لا تحاول ان تراني فيما بعد . ان الفراق مرٌّ يا غونو والحياة صعبة ولكن موت الرجاء اصعب من كليهما فلقد طالما رجوت ان اقضي سحابة العمر معك اما الآن فقد رأيت الممكن مستحيلاً والحلال محرّماً فلا بدّ من الفراق ولو كان فيهِ تلف روحي فتصبّر وكن رجلاً وعلّمني بتعقلك وثباتك مقارعة الخطوب وكن عوني على البلاء بابتعادك عني ونسيانك اياي ...

ولما قالت هذا دنت منهُ فطوّقت عنقهُ بذراعيها ورسمت على شفتيهِ قبلةً اشتركت في رسمها كل قوى حياتها وتمتمت كلمة الوداع وخرجت من الغرفة مسرعةً فبقي غونو وحدهُ كمن بهِ مسٌّ او كمن فقد الحسّ والقوّة والارادة ثم انتبه وخاف ان يدخل احدٌ ويراهُ على تلك الحال فخرج كاسفاً حزيناً وعاد وهو لا يكاد يبصر طريقهُ

ولما بلغ غونو منزلهُ اخذ الرسائل التي كانت لينا قد كتبتها اليهِ في بدآءة عهد الحب وقرأها واحدةً واحدةً حتى اتى عليها جميعاً ثم تناول زهرةً كانت لينا قد اعطتهُ اياها يوم ودّعها مسافراً في طلب الرزق فقبّلها ثلاثاً وضمّها الى الرسائل فوضع الجميع في علبةٍ صغيرة وعنونها باسم لينا وبعث بها اليها مصحوبةً بهذه الرقعة

« لم تمرّ بعدُ سنةٌ على حبنا وكنت احسب انهُ يدوم مدة العمر ولا يموت في مهد الطفولية لولا انكِ اردت لهُ الهلاك العاجل . ظننتِ اني اسلوكِ وانساكِ وفرضتِ عليَّ ارجاع كل تذكارٍ منكِ لزعمكِ انني انجو بذلك من حمّى التذكار المحرقة ولكنني لا استطيع نسيانكِ ما دمت حياً ولا ازال احبكِ حباً لا يدرك كنههُ غير الله والحب عندي غير الشهوة لان هذه تزول بامتلاك المشتهى اما الحب فيدوم دوام الحياة لانهُ عنصر من عناصرها . وامتثالاً لكِ اعيد اليكِ الآن كل ما لديَّ من تذكارٍ عزيز ولا يبقى عندي غير ذاكرتي التي تمثلكِ امامي في كل دقيقة من دقائق حياتي فاراكِ بقربي رغماً عما بيننا من المسافة . ولو كان حبكِ لي كحبي لكِ لقاومتِ الخلائق كافةً والمصائب والحياة وبقيتِ لي ولكنني لا اطالبكِ بما ليس في امكانكِ . وربما كان وجودي يثقل عليكِ او ينغّص عليكِ السعادة التي تتوقعينها باقترانكِ بابن وصيّك فلكي اظهر لكِ مقدار حبي لكِ ورغبتي في راحتكِ ومن اجل القبلة التي قطعتِ بها حياة املي فانني سأخلي بينكِ وبين ما اخترتِ واتمنى لكِ السعادة في حياتي وفي مماتي

الحزين غونو »

— ٣ —

في ذات يوم من ايام الخريف دخل الوصيُّ على لينا فوجدها حزينةً باكيةً فسألها عن سبب بكائها فقالت لست اعلم لذلك سبباً ولكني اشعر كأن قلبي بين مخالب نسرٍ فكلما قبضها يزيدني المًا واراني حائرةً قلقة حتى كأن جلدي يضيق عليَّ . قال انكِ ولعتِ في هذه الايام بالعزلة والانقطاع عن الناس وهذا الذي يثير اشجانكِ ويزيد غمومكِ وقد جئت الآن لابشّركِ بقدوم ولدي غستاف وهو كما علمتِ الرجل الذي اختارهُ ابوكِ لكِ بعلاً فسأبعثهُ اليكِ الآن لكي يسرّي همومكِ ويزيل اشجانكِ

وبعد هنيهةٍ دخل غستاف وانوار البشر تتدفق على وجههِ فنهضت لينا لاستقبالهِ فسلَّم عليها ودنا لكي يقبّلها فتباعدت عنهُ حبيّةً فقال لها لماذا تتراجعين عني ألم يسبق لنا ان كان يلثم بعضنا بعضاً ونحن طفلان . قالت كان ذلك ونحن في سنّ الصغر اما الآن فلا يهون عليَّ ان اقبّل رجلاً . قال لكنّ هذا الرجل هو ذلك الطفل ونحن نحن فما الذي يمنع تبادل القُبَل بيننا ولا سيما انكِ ستكونين زوجتي عن قريب . فاضطربت اضطراباً ظاهراً وقالت ان قُبَل الاطفال تدلّ على بساطة القلب وطهارة النفس وليس لها عندهم من معنى غير حركة الشفاه اما الرجل فللقبلة عندهُ معنىً خفيّ وهي سرٌّ من اسرار الحب واما قبلة المرأة فاذا كانت عن اضطرار فهي سمٌّ يقتل نافثهُ واذا كانت عن حب فهي جزءٌ من حياتها . قال اني اقبلكِ لاني احبكِ وكنت اظن الحب بيننا مشتركاً . قالت اظنك تدّعي الحب وانت لستَ في شيءٍ منهُ . قال جرّبيني تعرفي صدق قولي . قالت

لعلي اطلب منك قضآء امرٍ تظنهُ مستحيلاً . قال ما على الحب مستحيل . قالت اقسم لي انك تجيب طلبتي . قال اقسمت لكِ . قالت اذا كنت تشعر بشيءٍ من الحب نحوي فانزعهُ من فؤادك قبل ان يتمكن فيهِ . قال ولمَ . قالت لاني لا استطيع ان اقابل حبك بمثلهِ لاني احب سواكَ وقد ظننت اني اقدر ان امحو حبهُ من قلبي وان احمل فؤادي على محبتك والاقتران بك فوجدت ان ذلك فوق استطاعتي ولولا الوصيّة ... قال اية وصية . قالت ان اباكَ اخبرني ان ابي اوصاهُ وهو يجود بنفسهِ ان يتخذني زوجةً لكَ . قال ولكن اباكِ اوصى على شرط ان يكون الحب بيننا متبادَلاً والاّ فكلٌّ منا مخير في الاقتران بمن اراد . ولست اكتمكِ اني انما جئت اليكِ الآن لأقف على ما في ضميركِ فان وجدتكِ تحبينني وتميلين الى الاقتران بي فلا يسعني الا ان اكون عند ميلكِ ولو كان قلبي يتمزق لوعةً بحب فتاةٍ اجنبية لم يمنعني من مطارحتها الغرام الا ظني انكِ تنتظرين عودتي لاكون لكِ بعلاً . اما الآن وقد خلت الوصية من الشرط الاساسي فما علينا الا ان يساعد احدنا الآخر على الوصول الى الشخص الذي يهواهُ . فقولي لي ما اسم حبيبكِ واين مسكنهُ . قالت اسمهُ غونو ولا اعلم اين مسكنهُ لانهُ اختفى عني منذ اربعة اشهر

فاضطرب غستاف اضطراباً شديداً وحاول ان يخفي ارتعاشهُ فشعرت لينا بحركاتهِ وقالت لهُ ما سبب اضطرابك ولماذا تأوّهت لما ذكرت لك اسم غونو . قال لانهُ صديقي وعشير صبآئي وقد كنت عندهُ منذ ساعتين وهو ملقىً على فراش الآلام يصارع المنية . فشهقت لينا شهقةً عظيمة وقالت وما

حدث لهُ . قال قد خفي مرضهُ على الاطبآء ولهم الآن اربعة اشهر يعالجونهُ وهو لا يزداد الا نحولاً وسقاماً حتى عجزوا عن شفآئهِ وقد سمعتهم اليوم يقولون انهُ لا يعيش الى المسآء ...

وقبل ان يتمّ غستاف العبارة سقطت لينا الى الارض مغشيّاً عليها فبادر اليها وانهضها واجلسها على مقعدٍ ورش مآءً على وجهها حتى استفاقت وعاد اليها رشادها فانتصبت واقفةً وقالت هلمَّ بنا نذهب اليهِ فانا دواؤهُ الشافي . قال لكن ماذا يقول الناس . قالت لا يهمني في الناس غير حبيبي فهيّا بنا اليهِ ثم قادتهُ بيدهِ وخرجت من المنزل فركبا عربةً وسارا حتى وقفت بهما امام منزلٍ حقير منفرد فدخلاهُ واذا بالطبيب خارج وهو مقطب الوجه منزعج الخاطر فسألهُ غستاف عن عليلهِ فقال انهُ على وشك مفارقة الحياة . فصاحت لينا متوجعةً واسرعت الى غرفة العليل فوجدتهُ ملقىً على فراشهِ وهو كالخيال لشدة نحولهِ وكان يتمتم في ذهوله بالفاظٍ لم تفهم حبيبتهُ منها الا لفظة لينا . فدنت منهُ وقالت أفق يا غونو فان لينا حبيبتك قد اتت لتمرّضك . ففتح عينيهِ وحدّق بها وطفح على وجههِ نورٌ سماويٌّ ثم رفع اصبعهُ الى العلآء وقال « نلتقي هناك » واسلم الروح . فعظم الخطب على لينا وانحلّت ركبتاها وبلغ الحزن واليأس منها فسقطت على عنقه تقبّلهُ وانطرحت على صدرهِ باكيةً متوجعة فجآء غستاف لكي ينهضها واذا هي جثةٌ لا روح فيها

م * ن ...